

صورة الإنسان الجديد في الأدب اللبناني المعاصر

لقلم الدكتور
ميساك عاصي

- ١ -

ومحاولة تقمص مشاعر السابقين وذهنيتهم ، التي ظلت سائدة نتيجة للانحطاط الحضاري ، والانحطاط الادبي اللذين مني بهما العرب بعد الزدهار العربي والاسلامي في العصور المباسية .

لكن ، في حين كان الادباء التقليديون يجتهدون في التعبير عن واقع الانسان المتخلف وايدولوجيته الراكدة المستسلمة ، كانت بوادر اليقظة والنمو في قلب التناقض التاريخي للقرن التاسع عشر تعبر عن ذاتها بأشكال مختلفة في انتاج الطلائع الفكرية والادبية لتلك المرحلة ، وترسم السمات الاولية لانسان النهضة في توجهه نحو آفاق الوعي القومي ، ومفاهيم الحضارة الغربية للتقدم والحرية .

وهكذا ارتفع صوت المعلم بطرس البستاني (٢) داعيا الى تعليم المرأة واشراكها في الحياة الاجتماعية والثقافية ، مرسخا بدعوته بداية المسار الذي سيؤدي الى مساواتها بالرجل ، والقضاء على المفهوم التقليدي الذي حجز حريتها زمنا طويلا ، وعزلها عن حركة الفعل في الحياة الاجتماعية ، فكان بحق ، كما قال عنه جرجي نقولا باز « اول من ناصر المرأة في سورية على منبر ، بل اول رسول نسائي سوري دعا الى تعليمها وتهذيبها ... » (٣) .

وكما أسهم المعلم بطرس البستاني في صياغة مفهوم حرية المرأة في ذهنية الانسان الجديد ، فانه أسهم كذلك في صوغ مفهوم الوحدة الوطنية بين ابناء مختلف الطوائف الدينية ، عاملا هكذا عن طريق انشاء مدرسة وطنية ، وعن طريق تحرير نشرة « نفي سوريا » ، على احماد آثار الفتن الدينية التي افتعلتها المخططات الاستعمارية في لبنان . كما أسهم في مختلف النشاطات الادبية واللغوية والعلمية مما جعله في عصره ، على حد قول جرجي زيدان « زعيم الحركة الادبية في سورية ، من حيث المدارس والجمعيات والجراند والجلالات واللفة والعلم والادب » (٤) ومما جعله في رأي آخرين مصدرا اساسيا من مصادر الفكر الذي لعب دورا هاما في بعث « الاتجاه العربي او القومي العربي القائل بأمة عربية ووحدة عربية على اساس علماني وقومي » (٥) .

- (٢) (١٨١٩ - ١٨٨٢) .
(٣) حنا الفاخوري : تاريخ الادب العربي ، الطبعة البولسية ، حريصا لبنان ١٩٥١ ، ص ١٠٢٣ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ١٠٢٥ .
(٥) منير موسى : الفكر العربي في العصر الحديث ، دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٥ .

لا ادعي ، في هذا البحث ، امكان الاحاطة بمختلف الملامح ، التي يرسمها الادباء اللبنانيون للانسان الجديد كما يتمخض به الصراع الذي يخوضه شعبنا من اجل الحياة والحرية ، وكما تحاول اقسام الكتاب ان تبده في القصة والرواية والشعر وسائر انواع الادب واشكال التعبير .

وليست صعوبة الالمام بتفاصيل الصورة ناتجة فقط عن توضع ملامحها وألوانها في عدد غير قليل من الآثار ، او عن امتدادها زمنيا على مسافة ترقى بتباشير نموها وتطورها الى عشرات السنين من يقظة الوعي عندنا على واقع التخلف ووجوب تجاوزه بخلق الانسان القادر على مصارعة الجهل والاستبداد ونشيدان الاستقلال والحرية . بل ان مقدارا كبيرا من الصعوبة راجع ، قبل كل شيء ، الى تعدد المذاهب والايديولوجية ، واختلاف مسالك الرؤيا ، وتشعب الموقف من ادراك حركة التاريخ وتناقضاته ، وبالتالي من مفهوم الانسان الجديد وصورته .

- ٢ -

لكن اذا كان الادب ليس انعكاسا لواقع الحياة فحسب ، وانما هو الى ذلك ، استشراف ، واستباق لامكانات صيرورتها ايضا ، فان بدايات النهضة في القرن التاسع عشر قد حملت الى الادب العناوين الاولى لولادة الانسان الجديد ، في مقابل الصورة الكاملة للانسان القديم ، التي كان الادباء والشعراء التقليديون ، قد تفننوا في بيان سماتها بكل دقة وتفصيل .

ولعل بعث ادب « المقامات » على يد الشيخ ناصيف اليازجي (١) هو خير تمثيل لاحياء التراث التقليدي القديم في الادب واللفة والموقف من المجتمع والحياة . فالبلط في مقامات « مجمع البحرين » وهي اقايسى ذات نزعة زخرفية مصطنعة في أسلوب التعبير - هو النموذج الامثل لاغتراب الانسان العربي عن ذاته وعن حقيقته الاجتماعية والقومية في مرحلة الانحطاط وبواكير عصر النهضة . كما ان لهذا الكتاب دلالات اخرى عديدة ليس اقلها اغتراب الكاتب كليا عن بيئته وعصره ، وتحلله من أي التزام حي سوى الالتزام بالتقليد ،

(١) (١٨٠٠ - ١٨٧١) .

خلّ عنك الوقوف في دار ميه
انما دارنا بمن شرفوها
لا تلمني يا عاذلي بهواها
يتمنى الانسان لو كان عبدا
ولكم قد رأيت من حيوان
يا بني أمانا، ذوي الفضل بل يا
لست عبدا انا ، ولا أنت مولى ،
واعترزل ذكر زينب وأبيه ...
عن سليمى وعن سعاد غنية ...
فانا قيس هذه العامرية ...
ويقسم الادلة العلمية
يقضم الحبل بغية الحرية
معرش الناطقين بالعربية
أيها اللباس الحلى الذهبي

ولا يفوتنا في معرض الحديث عن اطلاق فكرة الحرية والاستقلال القومي ان نشير الى نشاط « جمعية بيروت السرية » وفروعها في دمشق وطرابلس وصيدا وهي « أول جهد منظم في حركة الحزب القومية » (١٠) وقد تأسست عام ١٨٧٥ بأهداف « تورية صريحة » (١١) وكانت أول جمعية تؤلف والهدف السياسي غايتها الأولى « (١٢) من غير ان يعلن عن اسماء مؤسسيها ، على ان منهم بالتاكيد الدكتور فارس نمر ، وبالترجيح الشيخ ابراهيم اليازجي .

- ٤ -

على ان طليعة الادباء والمفكرين الذين خطوا الملامح العميقة لصورة الانسان الجديد في أواخر القرن التاسع عشر قد تمثلت عننا بأسماء أبرزها على الاطلاق أديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) وشلي الشميل (١٨٥٠ - ١٩١٧) وفرح أنطون (١٨٧٢ - ١٩٢٢) . فلقد دعا هؤلاء الى اتجاه ليبرالي علماني صريح ، واشتراكي اصلاحي فسي بعض الاحيان ، فأسهموا اسهاما بالغا في صياغة مفهوم جديد للمجتمع « يدعو الى حكم ديمقراطي ، يتساوى فيه الجميع ويعطى لكل حسب كفاءته (لا حسب دينه) ويفصل فيه الدين عن السياسة ، ويقوم على العلم الحديث » (١٣) .

وهكذا لا ينصرم القرن التاسع عشر وتطلع شمس القرن العشرين الا وتكون أقلام نهر من الادباء اللبنانيين الطليعيين قد رسمت بأشكال مختلفة الملامح الاساسية لصورة الانسان الجديد المثل لحركة النمو والتجاوز في تلك الفترة ، وهي حركة تخط لواقع العلاقات الاجتماعية في ظل النظم الاقطاعية المتخلفة ، وفي ظل القهر الوطني ، والتجزئة القومية ، وسيادة الحكم العثماني الاستبدادي ، وهي في الوقت نفسه توجه نحو أفق اكثر تقدما واشراقا تصافرت عوامل احتكاك الشرق بالقرب على جلاء معالمة ، وساعد تقدم الحضارة الغربية ومفاهيمها الليبرالية المتطورة على رسم ألوانه ودروبه . وقد اضطلع الادباء اللبنانيون بمسؤولياتهم الادبية والتاريخية في تلك المرحلة ، وذلك بما صاغوه من مفاهيم ايديولوجية اساسية للتقدم وبما أرسوه من قواعد النضال السياسي الشجاع . كما واصل الادباء اللبنانيون في هذا القرن ترسيخ التقاليد الكفاحية لسابقيهم ، مستجيبين لنوعي الظروف في كل مرحلة ، عاملين على تعميق ملامح الانسان الجديد الذي يتمخض عنه الصراع في هذا القرن ويدخل هو نفسه طرفا اساسيا في لعبة هذا الصراع وتوجيهه في آن معا .

- ٥ -

اما الوضع التاريخي الذي افتتح به لبنان المقعد الاول من القرن العشرين فانه لم يكن مختلفا بشكل اساسي عن اوضاعه السابقة فسي نهاية القرن التاسع عشر من حيث تشديد قبضة الاستبداد العثماني على رقاب الاحرار ، ومن حيث استمرار التخلف في ظل الاقطاعات

ومع تلازمة الشيخ ناصيف البازجي والمعلم بطرس البستاني وزملائهم من رواد الحركة الادبية والفكرية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر بدأت الملامح الاساسية لصورة الانسان الجديد ترسم بشكل اكثر اتساعا وعمقا ، ولم تعد مقصورة فقط على مشاعر غائصة للوحدة الوطنية وبعض مظاهر الاصلاح الاجتماعي بل تجاوزتها الى مفهوم الوحدة القومية والاستقلال السياسي والتطور الثقافي والاجتماعي ونبت القبيبات والاستناد الى الفكر العلمي ، والى ادراك قيمة النضال العلمي وتأسيس الجمعيات والمنظمات لتحقيق تلك المفاهيم والاهداف .

من هنا ان التاريخ الادبي للثلاث الاخير من القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، يقدم لنا خطوطا معبرة حينا ، وغير متوازنة في وضوحها ودقتها حينا آخر ، ولكنها في كل حين خطوط اساسية لصورة الانسان العربي الجديد التي ستعمل اقلام الطلائع تابعا فسي هذا القرن على بلورتها وتعميقها واغنائها بالتفاصيل واللونييات ، انسجاما مع تطور حركة التاريخ ونضج الحركة الادبية والفنية في بلادنا .

ولعل من المفيد التذكير هنا بان اللبنانيين في تلك الفترة الفضل الاول في اطلاق مفهوم القومية العربية ، والاستقلال السياسي ، وانشاء التنظيمات السرية للنضال في سبيل تحقيق ذلك المفهوم . كما ان لهم الفضل الكبير في اطلاق مفهوم الحرية بشكل عام ، وفي طرح معظم قضايا التحرر الاجتماعي كقضية التعليم الالزامي والمجاني ، ونشر المعارف العلمية والنضال الشجاع ضد مختلف عوامل القمع السياسي الخارجي ، والنفسي الداخلي ، التي تحول دون نمو الانسان الجديد وتطوره .

وهنا في هذه المجالات تسطع اسماء نخبة من الشعراء والكتّاب الذين أسهموا بأشكال مختلفة وبمقادير متفاوتة في اطلاق تلك المفاهيم ونشرها . نذكر منهم الشيخ ابراهيم اليازجي (٦) السني كان له ، بالإضافة الى حضوره الادبي والعلمي ، الفضل في اطلاق أول نداء يدعو الى انتفاضة العرب القومية في قصيدة شهيرة مطلعها :

تبهوا واستبقوا أبها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
لقى الشيخ ابراهيم هذه القصيدة في أحد اجتماعات « الجمعية العلمية السورية » وكان عضوا فيها . ولقد « اتخذت شكل النشيد الوطني . والقصيدة في جوهرها تحريض للعرب على الثورة . واهابت بالسوريين ان يتحدوا ويلقوا عن أعناقهم النير التركي ، وكانت فسي جملتها مشيرة للمشاعر مغممة بالالفاظ التي تلهب الحماسة ... وكان لها أثر بالغ في نفوس الطلاب فطبعت عقولهم بطابع العزة القومية .. وكانت هذه القصيدة اول نشيد لحركة التحرر السياسي » (٧) .

كما نذكر من الادباء الرواد الشاعر الياس صالح (٨) صاحب القصيدة الشهيرة « الحرية » التي القاها في حفلة تخريج طلاب الكلية السورية - الجامعة الاميركية - (١٨٨٨) متغنيا فيها بالحريسة والتجديد داعيا الى نبت التقليد والعبودية ومعرضا فيها بسيادة العثمانيين واستبدادهم جاء فيها (٩) :

(٦) (١٨٤٧ - ١٩٠٦) .

(٧) جورج انطونيوس : بقظة العرب ، دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثانية ، ١٩٦٦ ، ص ١٢٠ .

(٨) (+ ١٨٩٥) .

(٩) راجع مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ١٢٨ .

(١٠) جورج انطونيوس ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(١١) المرجع نفسه ، ص ١٥٠ .

(١٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٦ .

(١٣) منير موسى ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

وذهنيته المتردية ، سوى ان تقاليد الكفاح التي تمهدتها أفلام الكتاب على امتداد القرن السابق قد اتيج لها من بين الأدباء والمفكرين المناضلين اللبنانيين رجيل آخر يعمق جذورها ويؤكدها شعلتها في وعي المواطنين لا في لبنان فحسب ، بل في معظم الحواضر التي هاجرت اليها قوافل اللبنانيين لا سيما في أوروبا وأميركا بنوع أخص .

وهكذا برز على مسرح الفكر والادب عندنا منذ بداية القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عدد من الرواد الذين جاهدوا في مختلف الميادين من اجل ان يكون للانسان في لبنان وفي سائر البلدان العربية حق التمتع بمنجزات الحضارة العالمية ، ونصيب واف مما توفره للفرد وللأمة من حريات شخصية وقومية .

فبالإضافة الى قافلة شهداء ٦ أيار ١٩١٦ الذين أبادهم السفاح العثماني جمال باشا شنقا في بيروت ودمشق لنضالهم النؤوب من اجل الاستقلال والتقدم ، يمكن ذكر نجيب غازوري الذي اضطلع في باريس ، في السنوات الاخيرة من حكم السلطان عبد الحميد ، بأعباء حمولة فكرية سياسية بدأت سنة ١٩٦٤ بتأسيس « جامعة الوطن العربي » ، وباصدار نداءات عنيفة يدعو فيها العرب الى الثورة على السلطة العثمانية ، وينشر كتاب باللفظة الفرنسية عنوانه « بقظة الأمة العربية » ، ثم باصدار مجلة شهرية عنوانها « الاستقلال العربي » ظهر العدد الأول منها في نيسان ١٩٠٧ مما لفت انظار أوروبا والعالم الى القضية العربية في ذلك الحين (١٤) .

ولعل نشاط الأدباء اللبنانيين في أميركا الشمالية كان النشاط الأعمق اثرا لا في البنية الذهنية للانسان العربي فحسب بل في البنية الفنية للادب وأشكاله الإبداعية ايضا .

وفي ظليمة أدبنا المهجرين ترسم أسماء ثلاثة منهم بأحرف مضيئة : جبران خليل جبران ، ميخائيل نعيمة ، وأمين الريحاني . واذا كانت آثار جبران ونعيمة قد شقت طريق الرؤيا الفنية ، ودشنت عهد المعاناة الفلسفية والكونية في الادب العربي المعاصر ، فان ادب الريحاني قد عمق مشاعر القومية العربية وبلورها في سياق فكر وحيوي وسياسة ليبرالية علمانية . واذا ما أدهشتنا الجذرية الثورية في روح جبران ونماذج شخصياته ، وحملنا ادب نعيمة على الفصوص التاملي في الذات حتى النفاذ الى الأبعاد الكلية ، فان قلم الريحاني ليدھشنا بجراته وصفاء دعوته التي يبلغ بها حدود الفاعرة وشرف الكلمة الرسولية في الالتزام السياسي والقومي . على انه يقضى لجبران فضل الريادة في اطلاق البعد الجمالي الحديث للانسان العربي في تلك المرحلة ، كما يبقى له ايضا وليخائيل نعيمة معا فضل سبق الى تشريع منافذ الأبعاد الميتافيزيقية والكونية كسبيل للتجاوز امام الانسان العربي الذي تصافرت قوى التخلف الديني بتحالفها مع قوى الاقطاع والاستبداد على سلبه أبعاده الميتافيزيقية والكونية المورثة . ويظل للريحاني أخيرا الفضل في تعميق البعد السياسي والقومي بمحتواه الليبرالي الذي أسهم رجيل الكتاب والمناضلين السابقين في رسم خطوطه الأولية العامة .

— ٦ —

وفي فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية تميز الوضع الادبي في لبنان بتنوع مصادر الاستلهام وتنوع الموضوعات والاساليب . ففي حين كان « الاخطل الصغير » الشاعر بشارة الخوري ، يتعهد بلورة الاحاسيس الجمالية في نطاق الشعور القومي حينما وفي نطاق الحب والغزل كل حسين ، انصرف في ديار الاغتراب رشيد سليم الخوري « الشاعر القروي » يتعهد في قصائده انماء روح النضال

(١٤) راجع جورج انطونيوس : بقظة العرب ، ص ١٧٢ .

القومي وبعث تقاليد الكفاحية ضد الاستعمار والصهيونية والتجزئة والتخلف . وفي حين كان ألباس ابو شيخة يعلي مداميك الرومطيقية في الشعر ويحيي عودة الانسان الى معانقة الطبيعة وتراب الوطن ، كان يوسف غصوب وسعيد عقل يفيضان الرؤيا الانسانية عندنا بجمالية الرمز والايحاء . اما في ادب القصة فيكفي ان نذكر مارون عبود الذي أرسى ركائز الاتجاه الواقعي لهذا الفن وأبرز « العلاقات الحميمة الليفة بين الناس والأشياء » (١٥) ، نافذا « الى ما في صميم الواقع ، واقع الناس والأشياء ، من حياة نامية متطورة ومن صراع تناقضات ومن ايجابية في هذا الصراع » (١٦) .

ولئن برزت في ادب تلك الحقبة ، وفي الانتاج الفكري ، نزعة الى الاطلاق من واقع الكيان السياسي الذي أوجده الانتداب الفرنسي للبنان بغية تجذره في ماضي التاريخ واكسابه هوية متوسطة غير عربية فانها لم تكن سوى وجه خاص من ظاهرة عامة برزت في الانتاج الادبي والفكري لمعظم البلدان العربية الواقعة تحت الانتداب اذ ذلك في محاولة لتكريس التجزئة تاريخيا ولواجهة التيار الوحدوي العربي المترسخ منذ عصر النهضة والدافع الاساسي للنضال من اجل الاستقلال والتحرر . ولقد كان على الادب التقدمي ، في المقابل ، لا سيما في الاربعينات ، ان يواجه بعث النزعة الإقليمية بجملة تستلعب من التراث العربي واللبناني أبهى صفحات النضال العربي ، وأزهى سطوره المشرقة بالقيم الوطنية والانسانية ، كما كان على الادب التقدمي في الوقت نفسه ان يشارك القوى العالمية في مصارعة الوحش النازي الذي انطلق يفترس حرية الشعوب ويهدد منجزاتها الحضارية بأسوأ مصير . وهكذا أسهم أدباؤنا خلال فترة ما بين الحربين في تنويع مصادر ابداعهم الجمالي والفكري ، وفي تعميق الأبعاد الروحية والمادية للانسان اللبناني والعربي ، كما أسهموا في حماية التراث التقدمي للحضارة العالمية من انياب النازية الهلترية . وليست أسماء عمرس فاخوري ورثيث خوري ورفاقهما في الادب والنضال سوى عناوين مضيئة في تاريخ تلك الفترة التي انتهت على الصعيد العالمي بانتصار الديمقراطية ، وعلى الصعيد العربي بانتزاع بعض الدول العربية استقلالها الوطني ، وتهيؤ ظروف استكمالها للاقطار العربية الباقية .

— ٧ —

لكن أجواء الحرب الباردة التي سبقتها سياسة الاحلاف العسكرية في منطقتنا العربية ومناطق كثيرة من العالم بدافع من عدوانية الاستعمار الامبريالية ، قد طرحت في الساحة اللبنانية والعربية ابتداء من الخمسينات قضية حماية الحرية والاستقلال الوطني . كما ان اغتصاب الصهيونية للوطن الفلسطيني وحقوق شعبه قد طرح بالحاح قضايا الهزيمة والتخلف الحضاري والتجزئة وتقضي الاسباب البعيدة والحاضرة لواقع الوجود العربي من مختلف النواحي التاريخية والايديولوجية .

وهكذا شهدت الخمسينات والستينات في بلدنا وفي منطقتنا تصاعد النضال الوطني والقومي في مواجهة تصعيد الهجمة الامبريالية والرجعية على المكتسبات التحررية ، وفي مواجهة العدوان الصهيوني الاستيطاني على الارض العربية في فلسطين . وكرديف لحركة التحرر السياسي والاجتماعي في صراعها مع القوى المعادية محليا وعاليا ، عكس الادب والفكر وجوه هذا الصراع وأبعاده التاريخية والايديولوجية، وبرزت في حلبته عندنا ثلاثة اتجاهات رئيسية استقطبت الجهود الإبداعية لادبائنا ومفكرينا :

(١٥) حسين مروه : دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي - مكتبة المعارف - بيروت - ١٩٦٥ ، ص ١٦ .

(١٦) المرجع نفسه .

ممكّنات ظروفه ومحيطه وانما تخلقه من بعيد ومن شاهر مغيرة مبتدعه وتصوراته الذاتية كأنما الكلمة أصلا هي الفعل ، وكأنما الواقع هو وليد الفكرة وهي الدافع الأول للصورورة والمحرك الوحيد للتاريخ من غير ان يكون بينهما أي نوع من الحوار على الاطلاق .

اما الانسان في أدب خليل رامز سرکيس فانه ، وان يكن يعاني تجربة وجودية ، الا ان درب الخلاص عنده ليس يكمن في تغيير الواقع الاجتماعي والموضوعي ، بل في التزام الكلمة الدينية فعلا مباشرا في التاريخ ، وهكذا تنحل أزمة الوجود بانحلال التناقض بين جوهر العقيدة الدينية والفعل السلوكي ، وذلك يعني ان أزمة الوجود انما هي أزمة الانفصال بين الكلمة - الله ، وبين الفعل - الانسان .

ولا شك في ان الجمالية الشكلية لهذا الادب ، ونقائه الفني الاسلوبي ، يضمنان له تأثيرا كبيرا في اوساط القراء ، الا ان رؤياه التجريدية المنقطعة كليا عن واقع الصراع التاريخي لا تضمن لههذا التأثير ديمومة فائلة تقاوم عصف الاحداث المصرية الطافية ، وانجذاب المعانة نحو الانفراس في تربة الواقع بعيدا عن الاحتمالات الميتافيزيقية التأملية .

- ٩ -

واذا ما انتقلنا الى الاتجاه الليبرالي في الادب والفن طالعنا أسماء عديدة بعضها برز حضوره عقب نهاية الحرب العالمية الثانية وانطرح في الخمسينات كطلان ومجاور استقطاب لحركة الشمس الحديث خاصة والادب الحديث بعامه ، وبعضها الآخر برز حضوره على امتداد الستينات وفتز الى مواقع الريادة في هذا الاتجاه وما يزال .

واذا كان من العسير حشد هؤلاء الادباء والشعراء في مدرسة ادبية واضحة المعالم محددة الهوية لتتنوع مصادر الاستلهام وتعدد الخصوصيات الفنية وتشعبها في تناجهم الادبي ، فان ثمة سلكا فنيا دقيقا يجمع فيما بينهم ، وخلفيات فكرية متشابهة تفرزهم عن اتجاهات سائر الادباء اللبنانيين .

اما السلك الفني الذي يجمعهم فهو اعتمادهم الرؤيا الجمالية الكثيفة اسلوبا في التعبير ، مع كل ما يرتكز عليه الاسلوب الرؤيوي من ضروب الرمز والصورة والايحاء . واما تشابه الخلفيات الفكرية فيمكن أصلا في الموقف الجذري الراض الذي يتخذونه من الواقع الاجتماعي والحياتي على جميع المستويات . وفي فقدان اكثرهم ما يطرحونه بديلا للمؤسسات التي يرفضونها سوى مقولات مجردة عن الحرية المطلقة حيناً ، وبلوغ العيشة وفقدان المناورات حيناً آخر ، والبحث عن دروب للخلاص الفردي ، والتحلل من الالتزام النصالي الجماعي في الصراع الديموي الذي تدور رحاه في المنطقة العربية منذ أمد طويل .

ولعل في الدواوين الشعرية الصادرة لابرز أدباء هذا الاتجاه كيوسف الخال مثلا ، أو أنسي الحاج وسواه ، ما يعين على تلمس الأبعاد الكثيفة للرؤيا الجمالية واعتمادها الرمز والصورة والايحاء وسيلة أساسية للتعبير ، كما يعين على تلمس مضامين تلك الرؤيا واحتضانها فكرة البعث والحرية بانعقادها الميتافيزيقية ودلالاتها المتحللة من الالتزامات التاريخية ، أو فكرة الخلاص المفرقة في الفردية أو في العيشة ، والخروج المطلق من المعانة التاريخية . ولعل في بعض مسرحيات عصام محفوظ خير دليل على رفض الواقع وادانته من مختلف الوجوه ، وعلى افلاس القوى الثورية التاريخية في نظره وتحولها الى جلادة للحرية ، اذ هي تسمى وتستشهد في سبيل انقاذها . كما ان رؤية يوسف حبشي الاخيرة « لا تثبت جنود في السماء » هي خير شاهد على ممارسة الجمالية القصصية الحديثة للتأكيد على انطفاء المنارات والوقوع في الاحساس المبهي المفلق .

١ - اتجاه اقليمي ، يركز على القيمة الجمالية المطلقة للادب والفن ، ويواصل في نتاجه بعث الخلفيات الفكرية والمعطيات التراثية المعاكسة لخط الوحدة القومية والتحولت السياسية والاجتماعية التقدمية ، ويتوسل الفكر الفلسفي المثالي ، والشعر ، ومختلف الانواع الادبية لا سيما القصص الاسطوري ، لخلق النموذج الانساني الذي يجسد حقيقة التصورات الذاتية لارباب هذا الاتجاه ، ويعبر عن مفاهيمهم ومقاصدهم الايدولوجية والتاريخية في الادب والفكر .

٢ - اتجاه ليبرالي يرفض واقع التخلف على جميع المستويات ، ويسعى الى التجديد الجذري في مضامين الادب وأشكاله ، وهو في ثورته الادبية والفنية يعارض معطيات التراث العربي وامكاناته في التحول والابداع . بل انه يذهب بالمطرفين والفلاة الى حد اعتبار الثورة نقیضاً للتراث ومعارضة له من كل الوجوه . كما يذهب الى طرح الثورة الادبية واللفوية معادلا للثورة الاجتماعية وشرطا اساسيا لها . واذا كان شاعر ومفكر مشهور كأونيس أفضى به مساره التجديدي والثوري الى منظور اشتراكي في موقفه الفكري والفني العام من قضايا التجاوز والثورة فان معظم كتاب وشعراء هذا التيار يتطلقون من مفاهيم الليبرالية القريبة المتقدمة ومن التزامهم باتجاهاتها الحضارية الحديثة في صياغة مضامين ادبهم وأشكاله ، وفي رسم صورة الانسان الجديد على هديها وفي ضوء مواقفها من قضايا التخلف والهزيمة والتجزئة والمستقبل .

٣ - اتجاه يساري يضم الكتاب ذوي الميول التقدمية والالتزامات القومية والاشتراكية ، ويعمل في الادب والفكر والفن على تعميق صورة الانسان الجديد ، كما ترفضها ظروف العصر ، وتقتضيها عوامل الصراع المحلي والعالمي ، بين قوى العدوان والسيطرة والقهر من جهة وقوى التقدم والعدالة والرخاء من جهة اخرى .

- ٨ -

هذه باختصار هي الاتجاهات الرئيسية التي سادت في الحركة الادبية الفكرية عندنا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والتي ما تزال الى حد بعيد تسود في الحركة الادبية الراهنة .

واذا كان من المتعذر في بحث موجز كهذا تتبع الملامح التفصيلية التي ترسمها للنموذج الانساني اقسام الادباء في كل اتجاه ، فليس يستحيل في الاقل ان نوه بالخطوط العامة لهذا النموذج ، كما تبدى من خلال أبرز الآثار المعروفة .

ولعل طبيعة المعانة الانسانية واتجاهها في كل تيار هي التي تحدد لنا هوية النموذج البشري الذي يطرحه الادباء كتجسيد لصورة الانسان الجديد الذي يتمثلونه ويهدف ادبهم الى تحقيقه .

فما هي طبيعة المعانة الانسانية واتجاهها في آثار ابرز ممثلي التيارات الثلاثة ؟ بمعنى آخر : كيف تبدو لنا صورة الانسان من خلال أبرز الآثار المعبرة عن كل من تلك الاتجاهات ؟

يكفي للدلالة على ملامح الانسان في التيار المنكفي على واقع لبنان المتوسطي ان نشير الى الآثار الادبية لثلاثة من أشهر مثليه وهم صلاح لبكي وسعيد عقل وخليل رامز سرکيس ، فان في ادبهم الخصائص الأساسية المميزة لرعيال الادباء في هذا الاتجاه .

ففي حين تسعى ريشة صلاح لبكي في كتاب « من اعماق الجبل » (وهو مجموعة أساطير لبنانية) الى التأكيد على قدسية الارض والانسان وربط مصير الجبل اللبناني واهله برغبة الآلهة في ان يكون لبنا ويطل وطن الالهة الخالد على مر الدهور ، تنطلق ريشة سعيد عقل في مسرحية « قدموس » وفي أساطير « لبنان ان حكى » لتؤكد على رسالة لبنان في الارض وكونه وطنا للحب والحقيقة . وسواء عند صلاح لبكي أو عند سعيد عقل تظل صورة الانسان - المثال كأننا لا تلده

وهكذا لا تفضي طريق الليبرالية في هذا الاتجاه الا الى خلق النموذج الانساني الراض الذي يعود فيقع اسير رفضه في مهاوي الانتظار الطويل ، او البعث القاتل ، او في خلاص فردي موهوم .

- ١٠ -

وتطابق بينها وبين سيطرة المدينة وطفان مظاهرها الحضارية اللانسانية ، ولا تجد منفذا للخلاص الا عبر حلم رومنتيقي باستعادة ماضي القرية وحياة الريف اللبثاني وقد جردتهما الرؤيا الرومنطيقية الهروبية من جميع مظاهر التعاسة والبؤس والالم لواقع الناس في ذلك الماضي وتلك الحياة .

كما اننا نجد أدبيا وشاعرا كميشال سليمان يؤكد في مجموعة اساطيره « احلام في النهار » على طاقات التحول ، والنزعة الانسانية ، واصول الرؤيا الواقعية في الارث العربي ، مقابل ما طرحته اساطير صلاح لبكي ، وسعيد عقل ، من تأكيد على لا عروبة لبنان ، وربط مصيره وواقعه وتراثه بأبعاد ميتافيزيقية سحرية ، وبعوامل تاريخية خاصة مصطنعة ، تستعلي على حقائق التاريخ وتعبث بها في سيقان رؤيوي ذاتي مفتعل .

وفي حين كان الشعراء الليبراليون ، كيوسف الخال وجماعة مجلة شعر على العموم ، ينسجون خامة الانسان الجديد من خيوط رؤيا حضارية غائمة للحياة والمجتمع ، وبأسلوبية جمالية تعتمد على الاثارة التصويرية والدهشة اللغوية ، كان شعر ميشال سليمان وما يزال يستل صورة الانسان الجديد من واقع الصراع الاجتماعي العربي والعالمي مجسدا بذلك مسار التناقض الجدلي بين قوى الظلم والحرية ، ومرآة التحول من مستوى الاغتراب عن الذات في ظل الاستبداد والتخلف الى مستوى الوعي والثورة بسبب من هذا الظلم نفسه وكنيجة له تحمل في ذاتها بكون التقدم والحرية وطاقات الثورة والتغيير ، بأسلوبية جمالية كثيفة في دلالاتها الفنية وكشوفها التجديدية .

وإذا كان المجال لا يتسع الآن لمزيد من المقارنة والمقابلة ، فالحقيقة ان من ذكرنا من رعب الادباء القصاصين قد لعبوا ، على اختلاف مستوياتهم من طاقات الوعي والتعبير ، دورا هاما في تعزيز الواقع التقدمية لادب القصة والرواية . كما ان ادباء آخرين من شعراء كفؤاد الخشن ، وتوفيق ابراهيم ، وحبيب صادق ، وجوزف حرب وسواهم قد لعبوا وما يزالون دورا مماثلا في تنمية مسار الشعر التقدمي في بلدنا .

ولا بد أخيرا من القول بان نقادا ودارسين كحسين مروه واحمد ابو سعد وميشال سليمان ومحمد دكروب وعلي سعد و خليل احمد خليل والياس شاعر وغيرهم من الباحثين والكتاب السياسيين قد أسهموا الى حد كبير وما يزالون في تعميق الوعي الادبي والفكري والايديولوجي لهذا الاتجاه ، والعمل على تمكينه من تجاوز مواقفه السابقة ، واتساع آفاق الرؤيا التاريخية امامه ، وتطوير اساليبه الفنية والجمالية .

وختاما ، اذا كانت صورة الانسان العربي الجديد هي صورة الانسان المؤمن بقيم التقدم والحرية ، المدرك بان التوجه نحو الاشتراكية هو طريق التجاوز والخروج من التبعية والتخلف والتجزئة ، وهو طريق التحرر الشامل والوحدة والعدالة ، فان اقلام الكتاب الوطنيين اليساريين على اختلاف مستوياتهم واهتماماتهم هي الاقلام العاملة عننا بتضحية وجهه في سبيل تحقيق تلك الصورة .

وإذا كانت صورة الانسان العربي الجديد هي اليوم على الاخص صورة الانسان الثائر بالقلم والبندقية بوجه الظلم والرجعية والهزيمة فان اقلام الكتاب الوطنيين والتقدميين في لبنان هي في طليعة الاقلام التي تعمل على خالق هذا الانسان .

ميشال عاصي

بيروت

واذ نصل هنا الى مواجهة التيار اليساري في الادب فان مضامينه الوطنية ، والتزامه القومي والاجتماعي والسياسي ، واتجاهه التقدمي العام لا تنسنا تفاوت درجات الوعي في النظرة الى دقائق الصراع في حركة التاريخ ، كما لا تنسنا ما يشوبه من شوبات جمالية ناتجة في اكثر الاحيان عن التزام الموقف على حساب الفن ، وعن الوقوع في شبكة الاحداث الآتية والاكثفاء بالعموم على السطح بدلا من الفصوص في الاعماق . كذلك لا يعمينا دخان الحركة التي يخوضها بعض هؤلاء الادباء الى جانب الانظمة العربية التقدمية في ملاحظة اكتشافهم بابرآز الجوانب الايجابية لوضع المجتمع في ظل تلك الانظمة والصمت عن جوانبها السلبية صمتا يكاد يكون مطبقا .

ومهما يكن من امر فان على عاتق الادباء في هذا الاتجاه تقع الى حد كبير مسؤولية تعميق ملامح الانسان الجديد التي تكونت خطوطها العامة عبر التراث الكفاحي لاقلام الكتاب اللبنانيين على امتداد مراحل النهضة العربية المعاصرة . كما ان على كواهلهم تقع مهمة تطوير الرؤيا الواقعية الى الحياة ، واسلبة اشكالها الملائمة وتمايرها الجمالية المبدعة .

وان من يوازن بين ما تبذره اقلام الادباء في هذا الاتجاه اليوم وما انتجته اقلام سابقين منذ ربع قرن ، او ما انتجته هي نفسها في فترة الخمسينات ، لا بد من ان يلاحظ فارقا في غنى الرؤيا واكتناز مستوى التعبير .

وإذا كان انتاج الجيل الجديد من الشعراء والقصاصين الناشئين في هذا الاتجاه لا يصلح بعد لاتخاذ معيارا للتقدم والتطور فان بوكيره في الصحف والمجلات والمؤلفات تعد بمواسم نامية في المستقبل .

على ان ما أنتجه ، وينتجه ادباء كسهيل ادريس ، وميشال سليمان ، وتوفيق عواد ، واميلي نصر الله ، ورضوان الشهال ، ومحمد عيتاني ، ومحمد دكروب ، وعلي ابو حيدر ، ومحمد علي الخطيب وغيرهم في حقل الرواية او القصة ، او الاسطورة ، يمكن اعتباره بدرجة اولى ترسيخا لمعالم الاتجاه الواقعي والتقدمي لفن الرواية والقصة في العقدين الاخيرين ، كما يمكن اعتباره ، بشكل او باخر ، تعميقا لملامح الانسان الجديد الذي اذ يعاني ظلامية الواقع ومأسويته ، وظواهر تقرب الانسان عن ذاته ومجتمعه وأحاسيس التمزق والضيق والقلق ، لا يفقد في معظم الاحوال ارتباطه بواقعه التاريخي ، وثقته بقدرته على التأثير في مجرى الواقع والمصير ، او بالقل ليس يقع فريسة الاستسلام للقياسات ، وانتظار رسل البعث والقيامة خارج دائرة الصراع والسيرورة وممكنات الخلاص والتقدم التي تتيحها حركة الواقع ومسيرته . فضلا عما طرحه آثارهم الادبية في اطار الرؤيا الواقعية العامة للحياة من قضايا اجتماعية وسياسية ونفسية من شأنها تجذب الانسان في محيطه ومجتمعه ودفعه الى مجابهة تلك القضايا وتجاوزها بروح كفاحية متفائلة ومنظور نصالي منفتح ، او دفعه على الاقل الى رفض الواقع البائس والبحث عن منافذ للخلاص في قلب الواقع وما يتيح من اختيارات متعددة .

من هنا مثلا نجد ان قلم سهيل ادريس كان يتوجه الى تعميق معاناة المجابهة بين موروث الحضارة العربية ومعطيات الحضارة الغربية والبحث عن دروب الاصاله في غمرة الصراع بين الحدائنة والتراث ، في حين كانت اقصايس يوسف حبشي الاشقر اذ ذاك ترفض معالم الحدائنة